القصص

قصة مصرية

الأعمى ...

بقلم محمود البدوى

تمر ترعة الكامل بقرية « س » وهى قرية صغيرة من قرى الصعيد ، فتشطرها شطرين غير متساويين ، فقد جاوت على الجانب الأيسر بقدر ما أضفت على الأيمن ، فاتسع هذا واستفاض حتى أصبحت منازله وبساتينه ونخيله وأعنابه لا يحدها البصر ولا تحصرها العين ، واستدق ذاك واستطال حتى قامت منازله الصغيرة على شط الترعة ذليلة منكسرة واجمة ، تشكو الى الله ظلم الطبيعة بعد أن شكت جور الانسان الذى خلفها سوداء قذرة تمرح فيها الحشرات من كل لون وجنس

وإذا استقبلت القرية وأنت قادم على جسرها الطويل ، بصرت أول ما تبصر بمنزل لحقير من هذه المنازل بنى بالطوب الأسود ، وخط جواره بستان ، ليس فيه سوى نخلتين ! مالت إحداهما على الترعة ، حتى غرقت فروعها فى الماء ، وسمقت الأخرى فى الجو ، حتى ناطحت بسمقها السماء ، ولا تدر النخلتان تمراً الآن ، ولا يرجى منهما شىء فى المستقبل ، فقد جف عودها وذهب شبابهما . وتقيم فى هذا المنزل منذ أكثر من تسعة أعوام أرملة فى الخمسين ، وهى امرأة دمثة الطبع — على خلاف المجاورة من مثيلاتها — ناحلة الجسم معروقة العظم واهية البناء ، تستريح فى بيتها معظم العام ، حتى يهل رمضان ، فاذا هل ، خرجت فى الهزيع الأول من كل ليلة حاملة على ذراعها صفيحة قديمة تطوف بها على منازل القرويين ، وهى تنقر نقراً خفيفاً ، وتغنى بأغنية قديمة ، قل من يدرك معناها ومبناها من سكان القرية ! على أنهم كانوا يهبون من مضاجعهم عند ما يصافح سمعهم إيقاعها وغناؤها ويبسطون موائد السحور ، وان كان الليل لم ينتصف بعد !! وهذا العمل الضئيل لا يجلب لها فى الغالب ورق شهرين أو ثلاثة ، فكيف تقتات باقى العام ؟ وكيف تعيش ؟ هذا هو السؤال ! على أن الذين انحدروا من الريف ، يعرفون تمام المعرفة أن هناك اللايين من أمثالها يضمون دائماً أيديهم على بطونهم ليحفظوا بذلك التوازن الاجتماعى لتخمة الأغنياء . مثل هذه الأيم السواد الأعظم من الفلاحين الذين لا يعرفون وخير لهم ألا يعرفوا ، أنهم أتعس المخلوقات البشرية فى الدنيا جمعاء . إنهم مخلوقات ذليلة تاعسة ، لصقوا بالأرض حتى أكلتهم الأرض ، وأفنوا عصارة حياتهم فيها حتى استنفدت قوتهم واستفرغت جهدهم . ولو رأيتهم وهم عائدون من الحقول مع مغرب الشمس ، والصفرة الباهتة تعلو وجوههم ، والغبار القذر يملأ أعينهم ويسد أنوفهم ، لعلمت أنهم أتعس الناس فى الناس ، وأشق الطبقات العاملة على الاطلاق . إنهم مخلوقات مريضة فقدت بهجة الحياة ونعيمها واستسلمت صاغرة للمرض والفناء

ويسكن مع هذه الأيم أعمى فى الثلاثين من عمره ، وهو شاب أسمر فارع ضليع الجسم مفتول العضل وثيق التركيب ، وهو المؤذن لمسجد القرية منذ أن شب عن الطوق وانخرط فى عداد الرجال . على أن الذى جمع بين هذه الأيم العجوز وهذا الأعمى الشاب ، لم يكن قرابة ولا نسبا ، وان كان القرويون يسمون العجوز « أم سيد » وسيد هو الأعمى ؛ وكانت المرأة تمتعض وتهتاج لهذه التسمية فى أول الأمر ، وهى التى لا « سيد » لها ، ثم ما لبثت أن استراحت لها على مرور الزمن فقر هائجها وسكن ، حتى تعمدت ألا تدفع هذا القول بما يكذبه ، وهى المتيقنة بأن الجدل فى أمثال هذه الأمور غير مجد فى الواقع . فمن الذى يقف فى وجه التيار الجارف ؟ ومن الذى يمكنه أن يمنع ألسنة الناس الطويلة جداً الى حلوقها ؟ لا أحد على التحقيق

على أن المنزل لم يكن للعجوز والشاب فى الحقيقة ، وإنما هو لرجل ملاح يعمل فى النيل ويقضى فيه العام كله . ولا يهبط القرية إلا زمن التحاريق ، فاذا جاء ، بات فى سفينته ، فقد ألف الرجل النيل ، ونسى منزله على توالى السنين

وكان المسجد الذى يؤذن فيه الأعمى فى طرف القرية الشمالى ، ولكى يبلغه لابد له أن يجتاز الترعة وعليها جسر ضيق ، يجوزه المبصر وهو راجف حذر ، فكيف بالأعمى ، ثم يدور بعد ذلك فى دروب وينعطف فى منعطفات ، ويجتاز بساتين من النخيل يكثر فيها الحسك والشوك ، وعلى الرغم من هذا كله ، فان الرجل كان يبلغ المسجد وكأنه المبصر الحديد البصر ، فلا يضل ولا يتباطأ فى سيره ؛ ولا يعتمد على حائط ، ولا يستند الى جدار ، وشد ما تعجب لذلك وتدهش ؛ على أنك متى سمعت القرويين وهم يقولون إن الرجل يبصر بقلبه ذهب عنك العجب كله

وإذا طلع الفجر على القرية ، وهى غارقة فى سبات عميق ، وكل شىء فيها ساكن هاجع ، فلا نأمة ولا حركة ، اللهم إلا سامقات النخيل وهى تترنح مع النسيم الوانى ، وسيقان الزرع وهى تتمايل مع الريح الرخاء ، طلع الأعمى الى سطح المسجد ، وانطلق يؤذن فى صوت حلو النبرات عذب الرنين ، ينفذ الى كل قلب ، ويهفو الى كل أذن ، ومن الذى يسمعه وهو يقول : « حى على الصلاة ! » فيتأخر بعد ذلك عن الصلاة ؟ لقد كان صوته ليناً شجياً يرن فى سكون الليل جميل اللحن عذب الرنين ، فيهب له القرويون من مضاجعهم ، ويخفون الى المسجد خاشعين صامتين

وكان الرجل محبوباً من أهل القرية جميعاً إلا النساء والأطفال . أما النساء فيكرهنه لأنه يزجرهن عن بئر المسجد ، ويمنعهن من ملء الجرار منها بقسوة وغلظة ، حتى ينقلب صوته الحنون عند محادثتهن الى صوت أجش خشن مرعب أحيانا ! والقرية لا تستغنى عن ماء البئر خصوصاً زمن الفيضان عند ما يصبح الماء عكرا نصفه طين . وكم تغفلنه مرارا ، وهو الأعمى وهن النجل العيون ! على أن سمعه المرهف دائماً كان يتيظهن أشد التيظ ! : فاذا أدلت إحداهن الدلو فى البئر وحركت « الجبيذ » (البكرة) ، وهو خشبى يحتاج للسقى بالزيت ليحبس صوته فى جوفه ، صر هذا ، فيمد الأعمى قامته ويقول بصوت جاف :

« مين ؟ »

فيتركن الدلو والجرار ويرحن يعلمن بالحلى ، ويطرن على وجوههن هاربات ، وقد تقع إحداهن على وجهها ، فتخوض فيها الأخرى من فرط الرعب ، ويقمن وجلات مذعورات ضاحكات أيضاً ، على أن هذا لم ينسهن من البئر اليأس كله . فهن يعلمن أنه يتروح بعد العشاء ، فاذا بصرن به خارجا من المسجد انطلقن الى البئر وهن راجفات أيضاً . فشد ما كانت تخيفهن عصاه الغليظة وإن كانت لم تصافح إحداهن حتى الآن .

ومن هنا نشأت العداوة بينه وبينهن واشتدت مع الزمن

أما الأطفال فكانوا كلما بصروا به على الجسر ، وهو فى طريقه الى منزله ، تقوده عصاه ، وصدره الى الأمام ، وسمعه مرهف ، ورأسه مستو ، وقامته منتصبة ، وخطواته ثابتة متزنة جروا وراءه يسبونه ، وقد يحصبونه بالحصى أو يرمونه بالحجارة ، وهو صامت باسم لا يلتفت اليهم ولا يكلم أحدا منهم ، حتى يقرب من بيته ، وهنا يطلع عليهم كلب للجيران أسود ضخم يربض دائما على الجسر ، فينطلق وراءهم حتى يشردهم فى الدروب . وشد ما غاظ هذا الكلب الأطفال حتى تسمعهم يهمسون خوفا من أن يسمعهم الكلب « لولا هذا الكلب .. ابن الكلب .. لكان الأعمى ... » وإن كانوا يقررون بينهم وبين أنفسهم أنه قلما كانت تصيب الرجل حصاة واحدة من كل ما يرمونه من حصى وحجر

ولم يكن لهذه العداوة سبب ظاهر فى الحقيقة ، اللهم إلا الطبع الشرير الذى ينزع بالأطفال الى السوء ، ويحبب لهم أذى الضعفاء من الناس

* * *

تأخر الأعمى مرة فى المسجد حتى زحف الليل ، وتكاثف الظلام واشتد ، فسمع وهو راقد فى ركن من أركان المسجد صوت الدلو فى البئر ، فاستوى على قدميه ، ومشى على أطراف أصابعه كاتما أنفاسه ، وصدره يضطرب ، وجسمه كله يهتز ، حتى جاز صحن المسجد ، وتيامن الى البئر ، وقلبه واجف . وكان قد خفت صوت الدلو ، ووضح صوت « الجبيذ » فقال لنفسه ، لابد أن امرأة تجذب الدلو الآن وهى مشتغلة به فلا تسمع خطوات قادم ... ووقف برهة ثم صاح بصوت خشن :

« مين ؟ »

فاستدارت المرأة وحلقت فى الظلام . أواه . . . إنه سيد الأعمى على مدى ذراعين منها ، ورمت الدلو وأذهلها الموقف الرعب عن ابداء حركة ما ، فوقفت فاغرة فاها ، ثم أسعفتها غريزة الهرب بعد ثوان ، فولت هاربة . فسمع وقع أقدامها فجرى وراءها ، وسمعه إلى خطاها ، وجرت حتى حاوزت المسجد . وبودها لو تصيح بأعلى صوتها ، ولكن من أين لها القوة على ذلك ؟ وكيف يطاوعها الصوت ؟ وعثرت قدمها بحجر فى الطريق فكبت على وجهها مذعورة ، وأنت عند ذلك أنة قوية ، فجرى

على الصوت وأهوى بيده العمياء ولمس كتفها ، وكان قد بلغ منه الجهد فوقف يلهث ويده ممسكة بكتفها ، ثم أنزل يده حتى قبض بعنف على رسغها ، وقامت المرأة متراجعة ، تود لو تفلت منه بكل ما تستطيع من قوة ، ولكنه ضغط على يدها بشدة ، وتحسس بيده الأخرى وجهها وقال فى صوت متزن :

« جميلة . . . ؟ »

« . . . . . »

ووقفت المرأة صامتة تهتز وترتجف

« لم لا تناديني لأملأ لك الجرة ؟ »

وقد رق صوته جداً ، فدهشت من تطور حاله وصمتت

« لماذا ؟ »

فشجعها صوته اللين وأجابت

« إنك لاتسمح لأحد بالدنو من البئر ... فكيف أناديك ؟ »

« ليس لواحدة أو اثنتين . . . وإنما عندما تجئن بالعشرات فتقطعن الحبل ، وتمزقن الدلو ، وتهشمن خشب الجبيذ ... فى البلد أكثر من أربع آبار قريبة ، فلماذا تجئن الى هنا دائماً . . . ؟ »

« لأن هذه أعذبها ماء . . . »

« هذا الماء العذب كثيراً ما ينزح . . . »

« النيل فى فيضانه والماء كثير ... »

« أجل ... أ ... أ ... ولكن ... أملأت الجرة ؟ »

« نصفها . . »

« سأكملها لك »

وانقلب إلى البئر ، فمشت وراءه مطمئنة ، وأدلى الدلو وهو يحس بعض الاضطراب ، فأخذ يدير الجبيذ بسرعة ليملأ لها الجرة ويصرفها عنه ، ويبعدها عن وحدته وسكونه

وقال وهو يفرغ الدلو بصوت خافت لين المخارج :

« إذا جئت مرة أخرى ... ناديني لأملأها لك »

« كثر خيرك »

وساعدها على حمل الجرة ، وانطلقت بها الى بيتها ، ووقف ينصت إلى هزيم الريح القوية فى الحقل البعيد

* * *

وأخذت جميلة بعد هذه الليلة تتردد على البئر دون خوف أو وجل ، كانت تجيء فى كل يوم مرة ، عند مطلع الفجر أو بعد أذان العشاء ، لأن زوجها لا يسمح لها بالسير فى طريق القرية إلا بعد أن ينام الناس ، وتنقطع الرجل . . فهى فتاة فى رونق صباها رائعة الحسن غضة العود وزوجها يخشى عليها العين ! ولا يحب لها ملاقاة شبان القرية الذين يقفون على رأس الطريق فى ساعات معينة من النهار ! وكانت تقابل سيد الأعمى فى غالب الأوقات التى ترد فيها البئر ، وكثيراً ما أترع لها الجرة ، وأعانها على حملها ، أو ملأ لها الحوض الصغير الذى على يمين البئر لتغسل وجهها ورجليها قبل ذهابها الى بيتها ، وكانت تطوى كمها الى مرفقيها ، وتحسر شالها عن شعرها ، وترفع ثوبها الى ساقيها وهى منحنية على الحوض تغتسل . كانت تفعل ذلك ، دون خجل أو حياء لأن سيداً أعمى

واستراح سيد على مرور الأيام لحضورها حتى أصبح يشعر فى الأيام التى تتخلف فيها بالانقباض والوحشة . كان يحس ، من أعماق نفسه ، أن شيئاً ينقصه ، شيئاً يستريح معه ، وينشرح له صدره ، وتنتشى حواسه ، وتهدأ ثائرة أعصابه

وكانت جميلة تدفعها غريزتها أول الأمر إلى الخوف منه واتقاء شره كرجل ، بصرف النظر عن كونه أعمى ، ولكنها ما لبثت — بعد الانفراد معه مرة ومرات — أن استراحت واطمأنت ووثقت من عفته وخلقه ، حتى كانت تخرج معه إلى حد المداعبة ، كأن تخفى عكازته ، أو تخلع الدلو ، أو تقطع الحبل ، أو ترشه بالماء ، وكان يضحك لهذا حتى يرقص قلبه ، ويلوح لها بعصاه مهدداً

على أن هذا التآلف الذى أصبح بين سيد وجميلة ، لم يشجع غيرها من النساء على القرب من البئر ، لأنهن كن لا يعلمن بتغير حاله ، وإن علمن لا يصدقن ، ولم يكن هو يزجرهن عن البئر ، ويمنعهن من ملء الجرار منها ، لأنه كان يخاف على الماء فقط ، بل لأن شيئاً خفياً فى أعماق نفسه ، كان يدفعه إلى النفور منهن وابعادهن عن جوه ... دافع باطنى عجيب كان يخرجه عن هدوئه وسكونه ، عندما يسمعهن يتحدثن على الماء أعذب حديث وأرقه ، كان يرجف له ويضطرب ، وهو الرجل وهن النساء ... شعور باطنى غريب كان يحمله على فعل ذلك ولم يستطع تحليله ولا تعليله ، وهو الجاهل الذى لم يذهب إلى المدرسة ولم يدرس علم النفس . لقد قضى الرجل حياته بعيداً عن جو المرأة فأخرجها عن دائرة تفكيره ، بعد أن خرجت عن دائرة وجوده ، ولم يعد يفكر فيها مطلقاً ... لم يعد يفكر فيها ، ولا يحن إلى لقياها ، ولا يستريح لرفقتها